

بَيْنَ التَّأْسِيسِ القَوَاعِدِيِّ والقَوَاعِدِ المُؤَسِّسَةِ

الشيخ ليث عبد الحسين العتابي
رئيس شعبة البحوث و الدراسات
في العتبة العلوية المقدسة

فحوى البحث

يشكل البحث قواعد ينطلق منها الباحث لتسهيل استيعاب جملة من العلوم والمعارف القرآنية صاغها الباحث ضمن جامع مشترك اطلق عليه اسم (الكليات القرآنية). ويرى الباحث ان المراد من البحث: توضيح الاسس المهمة في القرآن الكريم ضمن كليات جامعة. و بذلك فقد حاول الباحث الوقوف على ايجاد جامع مشترك لجملة من الموضوعات القرآنية ضمن صياغة قواعدية كلية تسمى (القواعد القرآنية).

مقدمة تمهيدية:

إن القواعد من الأمور التي لا غنى للإنسان عنها، فقد اصبحت الدستور الذي يسير عليه، و المنهج الذي يتخذه سبيلاً في سيره نحو ما يريده و يبتغيه.

فسواء أكانت هذه القواعد صحيحة بأجمعها، أم انها تحتمل الخطأ و الصواب، إلا أن المهم -في ذلك كله -بانها تعطي للإنسان نوعاً من الاطمئنان و نوعاً من التسليم ليوصله إلى حد من عدم المانعية في مسيرته الحياتية.

إن الإنسان و على اختلاف لغته أو معتقده و منذ اقدم العصور يسعى إلى التقنين و التقعيد، فيسعى بما لديه من سطوة و حب هيمنة إلى ان يلزم الأخرين بما وضعه أو اكتشفه أو اخترعه من قوانين و قواعد. فيثيب و يعاقب و يحكم و يتصرف تبعاً لذلك.

و بما ان كل شيء لا يخرج عن قانون يحكمه أو عن قاعدة توضحه، فمن اليقين بأن مصدر التشريع الأول، و المعجزة المحمدية الكبرى، لن يخرج عن عرف العقلاء بما يمتلكه من عموميات و كليات و قواعد مفيدة و مهمة في مجال التشريع و السير و السلوك.

إن من أهم ميزات القواعد القرآنية؛ شموليتها و سعة معانيها. إذ انها ـ بشكل عام ـ ليست مختصة بموضوع محدد من حيث كونها قواعد، و إن مواضيعها ليست مختصة بموردٍ خاص من حيث التطبيق.

مع لزوم الالتفات إلى: (أن خصوص سبب النزول لا يخصص الحادثة) إذ تبقى للآيات القرآنية عموميتها و عدم محدوديتها.

إن هناك قواعد قرآنية تعالج القضايا الاجتماعية، و قواعد تصحح القضايا الاعتقادية، و قواعد مهمتها ترشيد السلوك، و قواعد أخرى مهمتها تشريعية.

إن الغرض التعليمي يعدّ من أهم الأغراض في القرآن الكريم. فبما ان للقرآن الكريم اغراضاً كثيرة، منها التربوي، و منها التشريعي -على سبيل المثال -إلا أن الجامع المشترك لها كونها قد جاءت بقصد التعليم.



فـ(الغرض التعليمي) من المرادات الجدية في كتاب الله تعالى، و الهدف الأساس من وراء ذلك هو هداية البشرية جمعاء.

فكيف لنا أن نحدد المراد الإلهي؟.

نقول: لولا وجود الأنبياء و الرسل و الأوصياء، و وجود الكتب السماوية لما استطعنا فهم المراد الإلهي لجملة من أسرار الوجود الكوني و الإنساني.

إن الإنسان أدرك بفطرته و بما آتاه الله تعالى من نعمة العقل أموراً مهمة في هذا الوجود، لكنه لم يستطع معرفة الحقائق و الأسرار المهمة لهذا الوجود.

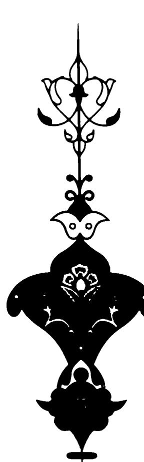
لقد كان إرسال الرسل و الكتب السماوية من اجل تعليم الإنسان أهمية و غاية وجوده في هذا الكون، و لكي يعرف ما الواجب عليه تجاه كل شيء، بدءً من نفسه و انتهاءً بخالقه جل و علا.

في بحثنا هذا سنتناول الكليات القرآنية العامة ضمن منهج قواعدي و ذلك لإثارة الكتابات الجادة حول هذا الموضوع المهم و الحيوي، و الذي لم يكتب عنه -بحسب تتبعي -بشكل تخصصي.

ففي هذا البحث القرآني لا أقول بأن ما وصلت إليه هو نهاية المطاف، أو انني اخترعت ما لم يخترعه غيري، هذا من جانب. و من جانب آخر فإن الذي سرت عليه ما هو إلا طريق بحث معرفي غير مخالف لمقتضى العقل و لا لثوابت الشرع الحنيف.

إن هذا البحث يشكل قواعد انطلاق تسهل استيعاب جملة من العلوم و المعارف القرآنية صغناها ضمن جامع مشترك اطلقنا عليه اسم (الكليات القرآنية) فلا يعتقد معتقد باننا قد ابتكرنا ذلك من عن دياتنا لأن المراد هو توضيح الأسس المهمة في القرآن الكريم و ذلك ضمن كليات جامعة، فهذا هو منهج القرآن، الذي جاء لهداية البشرية جمعاء لا يحده زمان و لا مكان.

كان لا بد ان نقف -في بحثنا هذا- عند النصوص القرآنية المهمة و المؤيدة لذلك، معززين أقوالنا بالأحاديث المباركة للرسول الأكرم و أحاديث أئمة أهل البيت النبوي المبارك، و



مستشهدين على جملة من المطالب بأقوال العلماء من أهل الاختصاص.

في هذا البحث سوف نحاول الوقوف عند هذا الموضوع المهم ألا و هو ايجاد جامع مشترك لجملة من الموضوعات القرآنية لنضعها ضمن صياغة قواعدية كلية تسمى بـ(القواعد القرآنية).

الكليات القرآنية:

إن الكليات القرآنية قد تكفلت بإرساء الأساس المرجعي الذي ينبثق منه التشريع الإسلامي، وأن الشريعة الإسلامية قد تفصلت فروعها وجزئياتها، بعدما تأصلت أصولها وكلياتها[1].

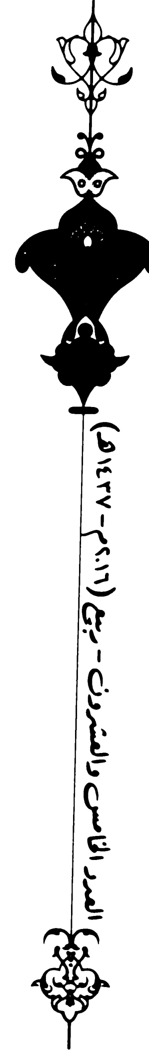
ومما يجدر التنبيه عليه، كون هذه الكليات ليست على درجة واحدة، لامن حيث كليتها وعمومها، ولا من حيث رتبتها وأولويتها، بل بعضها أولى وأعلى، وبعضها دون ذلك، وبعضها أعم وأشمل، وبعضها دون ذلك. وقد يكون بعضها مندرجا في بعض، وبعضها متفرعا عن بعض. وكذلك يقال في الجزئيات، فمنها جزئيات كبرى تنطوي على غيرها، ومنها جزئيات صغرى تنطوي في غيرها. فالجزئيات الكبرى قد تكون بمثابة كليات لعدد كبير من الجزئيات الصغرى، المتفرعة عنها أو المتعلقة بها.

إن للقرآن أساليبه المتميزة في عرض مضامينه وأداء وظائفه، ذلك أنه يخاطب ويعالج الكيان البشري بكل مكوناته وبكل متطلباته دفعة واحدة، ولذلك تمتزج فيه -في الموضع الواحد -عناصر متعددة للخطاب، أو عناصر متعددة للمعالجة، فتجد أسس العقيدة مع جزئيات التشريع، وتجد القصص مع المواعظ، وتجد الحِجَاج المنطقي مع ذكر الجنة والنار، وتجد مشاهد الطبيعة مع تكاليف العبادة، و هكذا.

و الكليات القرآنية التي هي موضوعنا، يعرضها القرآن الكريم ضمن هذه الأساليب المتنوعة المندمجة.

فكثير من هذه الكليات جاء على لسان الرسل والأنبياءعليهم السلام، أو ضمن

(١) أي: أحكمت ثم فصلت.



صفاتهم ومواقفهم، أو جاء حكاية عما في كتبهم وشرائعهم. وجميع هذه الصيغ والأساليب مقتضاها: (التعليم والتوجيه والتشريع).

وكثير من الكليات القرآنية جاءت في صيغ وصفية لأحوال ونماذج من الناس. وهي إما تذكر صفاتهم المحمودة والممدوحة، لأجل الاتباع والاقتداء، أوصفاتهم المذمومةوالمستنكرة، لأجل الاجتناب والانتهاء.

قد تأتي الكليات القرآنية بصيغ خبرية تقريرية، على شكل مبادئ وقواعد كما في الآيات:

قال تعالى: ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[سورة الأنعام: ١٥٢].

و قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ [سورة الإسراء: ٧٠].

و قد تأتي الكليات القرآنية أيضا بالصيغ الصريحة للأمر والنهي (أوامر كلية ونواهٍ كلية).

فمن الأمر:

قال تعالى: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ﴾ [سورة الأعراف: ٢٩].

و قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ [سورة الإسراء: ٣٤].

ومن النهي:

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [سورة الأنعام: ١٥١].

و قال تعالى: ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[سورة الشعراء: ١٨٣].

إن الكليات الأساسية يراد بها المعاني والمبادئ والقواعد العامة المجردة، التي تشكل أساساً لما ينبثق عنها من تشريعات تفصيلية وتكاليف عملية .

إن المراد بالكليات القرآنية: القواعد و الأحكام العامة التي تنطبق على مجالات و أبواب متعددة و على جزئيات غير منحصرة.

لقد وردت ضمن هذه الكليات بعض الأحكام الأساسية في التشريع

الإسلامي، لكونها ممتزجة ببعض الكليات العامة، و أيضاً لأن بعض العلماء يسمونها أحكاماً كلية نظراً لأهميتها و سبقها في نزول التشريعات الإسلامية[٢].

إن الأصل في الأحكام العامة بشكل أخَص و الأحكام الشرعية بشكل خاص المذكورة في القرآن الكريم أنها جاءت للعموم، إذ ان التخصيص يحتاج إلى مؤنة زائدة.

إن صياغة (القواعد الكلية) هو فن يمكِّن العقل من تجاوز الإغراق في الجزئيات و التفاصيل.

إن (القواعد الكلية للقرآن الكريم) مختصرة سهلة ميسرة، تلائم مقاصد القرآن التيسيرية، و لكنها ليست مبسطة و لا مختزلة و لا أيقونية.

إن مصطلح (الكليات) عموماً، يقصد به؛ المعاني و القواعد العامة المجردة، التي تشكل أساساً لما ينبثق منها، و يبنى عليها من الجزئيات، و عليه فإن مصطلح (الكليات) هو المصطلح المقابل لمصطلح (الجزئيات).

لقد بدأ نزول القرآن الكريم بالآيات المحكمات الكليات التي كانت سابقة على آيات الأحكام التفصيلية؛ فالقرآن المكي اهتم بالدرجة الأولى بالكليات الأساسية و المبادئ العامة للشريعة الإسلامية، ثم نزل بعدُ في المدينة تفصيل أحكام الشريعة.

المقصود بـ(كليات القرآن) تلك التي تتحدث عن أمور كلية، تتعلق بجانب التصور و الاعتقاد و الأخلاق و السلوك. أو بعبارة أخرى: هي المعاني و المبادئ و القواعد العامة المجردة التي تشكل أساساً و منبعاً لما ينبثق عنها و يبنى عليها من تشريعات تفصيلية و تكاليف عملية و أحكام و ضوابط تطبيقية.

و قد جاءت (كليات القرآن) كي تحدد القيم و المثل، و تنشئ تصوراً عاماً للكون و الحياة، و تبين الغايات و المقاصد العامة التي يسعى التشريع لتحقيقها في حياة الناس، و في الوقت

(٢) مثل: الوصايا العشر في سورة الأنعام و أواخر سورة الفرقان.

نفسه وَضَّحتْ تلك الآيات أمهات المفاسد، و أصول الانحرافات التي تهدد حياة الإنسان، من عقدية و فكرية و نفسية و سلوكية.

على العموم يمكن القول: إن (الكليات القرآنية) قد تكفلت بإرساء الأساس النظري و الإطار المرجعي، الذي ينبثق منه التشريع الإسلامي، و ان الشريعة الإسلامية قد تفصلت فروعها بعد ما تأصلت كلياتها.

إن الكليات القرآنية منها ما جاء منصوصاً عليها بعبارات جامعة في آية، و منها ما جاء في جزء من آية و هذا كثير، و منها ما جاء ضمن مجموعة من الآيات المتضمنة لعدة معانٍ و أحكام كلية.

و كثير من الكليات القرآنية جاء في صيغ وصفية لأحوال و نماذج من الناس؛ أما بذكر صفاتهم الممدوحة لأجل الاتباع و الاقتداء.

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ﴾ [سورة الرعد: ٢٠].

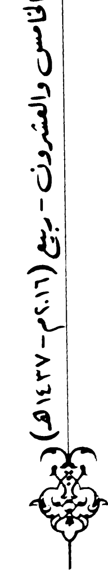
و قال تعالى: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [سورة المؤمنون: ١ -١١].

و أما بذكر صفاتهم المذمومة و المستنكرة لأجل الاجتناب و الابتعاد عنها.

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴾ [سورة الشورى: ٣٧].

و قد تأتي الكليات القرآنية بصيغ خبرية تقريرية، على شكل مبادئ و قواعد، و تأتي أحياناً بصيغتي الأمر و النهي.

ثم ان مصطلح (الكليات) يقابل مصطلح (الجزئيات)، حيث ان الجزئيات



هي: كل ما يأتي تفصيلاً و تطبيقاً للكليات، سواء أكان ذلك منصوصاً عليه، أم مجتهداً فيه تنزيلاً و تطبيقاً.

فمثلاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾[سورة النحل: ٩٠].

فهذه الآية الكريمة أصل كلي يأمر بالتزام العدل عموماً، و الإحسان إلى الغير، لكن قوله تعالى: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانًا﴾[سورة البقرة: ٨٣].

هو تفصيل لهذا الكلي، و كذلك قوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنًا﴾ [سورة البقرة: ٨٣].

ايضاً تطبيق لهذا الكلي.

و (كليات القرآن) خير معين للمفسر على تفسير كتاب الله، و فهمه فهماً دقيقاً من حيث التقييد و التخصيص، كما أنها عون للفقيه من أجل الاستمداد منها فيما لا نهاية له من القضايا و المستجدات التي تطرأ على حياة الناس، و هذا مما امتازت به شريعة الإسلام على غيرها من الشرائع.

لقد جاءت (كليات القرآن) لتحدد القيم و المثل، و لتنشئ تصوراً عاماً للكون و الحياة، و تبين الغايات و المقاصد العامة التي يسعى التشريع لتحقيقها في حياة الناس، في الوقت نفسه وضحت تلك الآيات أمهات المفاسد، و أصول الانحرافات التي تهدد حياة الإنسان، من عقائدية و فكرية و نفسية و سلوكية، و على العموم يمكن القول: إن (الكليات القرآنية) قد تكفلت بإرساء الأساس النظري و الإطار المرجعي، الذي ينبثق منه التشريع الإسلامي، و أن الشريعة الإسلامية قد فُصلت فروعها بعدما تأصلت كلياتها.

ثم إن مصطلح (الكليات) هنا مقابل لمصطلح (الجزئيات) حيث إن الجزئيات هي: كل ما يأتي تفصيلاً و تطبيقاً للكليات.

إن الأخبار تؤكد على ان الله تعالى لم يدع شيئاً يحتاج إليه العباد إلا أنزله في الكتاب، أو جاء في السنة المباركة.

فعن حماد، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: ((ما من شيء إلا و فيه

كتاب أو سنة))[3].

و عن مُرازم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((إن الله تبارك و تعالى أنزل في القرآن تبيان كل شيء، حتى و الله ما ترك شيئاً يحتاج إليه العباد، حتى لا يستطيع عبد أن يقول: لو كان هذا أنزل في القرآن، إلا و قد أنزل الله فيه))[4].

و عن المعلى بن خنيس قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: ((ما من أمر يختلف فيه اثنان، إلا و له أصل في كتاب الله و لكن لا تبلغه عقول الرجال))[5].

أنواع القواعد القرآنية:

إن للقواعد القرآنية ضمن بحث (الكليات القرآنية) أنواعاً موزعة بحسب طبيعة و موضوعات الآيات القرآنية المباركة و التي يمكننا تقسيمها بالشكل الآتي:

١. القواعد الفطرية:

فالفطرة الإنسانية -عموماً -واحدة. قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الروم: ٣٠].

إن في الإنسان حاجات فطرية عامة، كما و ان هناك حاجات خاصة، إلا انها جميعاً تعتبر حاجات فطرية إنسانية. كما و توجد ملامح عامة تبين طبيعة هذه الحاجات الفطرية أوردتها آيات القرآن الكريم منها:

١. الهلع، و الجزع، و المنع:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾[سورة المعارج: ١٩ -٢١].

فالآلف و اللام الداخلة على الأوصاف، و أسماء الأجناس تفيد الاستغراق بحسب ما دخلت عليه.

و مثاله الآيات المتقدمة من سورة المعارج المباركة، إذ أن هذا عامٌّ بجنس الإنسان، فكل إنسان هذا وصفه، إلا من استثنى الله تعالى بقوله: ﴿ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ [سورة المعارج: ٢٢].

٢. اليأس:

---

(٣) الكافي، ج١، ص٥٩، ح٤.
(٤) الكافي، ج١، ص٥٩، ح١.
(٥) المصدر السابق، ج١، ص٦٠، ح٦.

و قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا ﴾ [سورة الإسراء: ٨٣].

(و دل قوله كان يئوسا على قوة يأسه، إذ صيغ له مثال المبالغة، وأقحم معه فعل «كان» الدال على رسوخ الفعل، تعجيبا من حاله في وقت مس الضر إياه، لأن حالة الضر أدعى إلى الفكرة في وسائل دفعه، بخلاف حالة الإعراض في وقت النعمة، فإنها حالة لا يستغرب فيها الازدهاء لما هو فيه من النعمة)(٦).

٣. الجدل:

و قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ﴾ [سورة الكهف: ٥٤].

(المراد هنا مطلق الجدل، وبخاصة ما كان منه بالباطل، أي أن كل إنسان في طبعه الحرص على إقناع المخالف بأحقية معتقده أو عمله، وسياق الكلام يقتضي إرادة الجدل الباطل)(٧).

٤. القتر (البخل):

و قال تعالى: ﴿ قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ﴾ [سورة الإسراء: ١٠٠].

(و جملة و كان الإنسان قتورا حالية أو اعتراضية في آخر الكلام، وهي تفيد تذييلاً؛ لأنها عامة الحكم، فالواو فيها ليست عاطفة. والقتور: الشديد البخل، مشتق من (القتر) وهو التضييق في الإنفاق)(٨).

٢. القواعد التشريعية:

إن المراد بالكليات التشريعية، المبادئ والقواعد الكلية المتضمنة والمنتجة للأحكام العملية، فهي بالدرجة الأولى وضعت قواعد لضبط السلوك والتعامل البشري وما يحتاجه من تحليل وتحريم وإيجاب وإباحة.

و الكليات التشريعية: هي التي تتعلق بأفعال العباد من حقوق و واجبات، و

(٦) التحرير و التنوير، الطاهر بن عاشور، ج ١٦، ص١٩٣.

(٧) التحرير و التنوير، ج١٦، ص٣٤٩.

(٨) التحرير و التنوير، ج ١٦، ص ٢٢٤.

تقنينها بالدستور الإلهي العام و الشامل لكل بني البشر، ضمن مورد الطاعة العام، و هناك تقنين خاص بالأديان السماوية من خلال وضع الملامح العامة و الأساسية للعبادات و من ذلك الدين الإسلامي الذي وضع دستوراً في تقنين افعال العباد بما يختص بالصلاة و الصوم و الحج و الزكاة و باقي العبادات، و ما يتعلق بها من وجوب و حرمة و أحكام أخرى.

إن (التشريع الإسلامي في اتجاهاته العامة و خطوطه يتأثر و ينبثق و يتفاعل مع وجهة النظر القرآنية و الإسلامية إلى المجتمع و عناصره و أدوار هذه العناصر و العلاقات المتبادلة بين الخطين)[٩]. أي: خط علاقات الإنسان مع أخيه الإنسان، و خط علاقات الإنسان مع الطبيعة.

قال تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾[سورة المائدة: ٩٢].

و قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[سورة البقرة: ٢٧٧].

و قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِي ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾[سورة المائدة: ٩٠ –٩١].

و قال تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ

(٩) المدرسة القرآنية، محمد باقر الصدر، ص١٨٥.

ٱلطَّيِّبَٰتُۙ وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٤﴾ ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [سورة المائدة: ٣-٥].

و (المضمون التشريعي الذي وضع قواعد السلوك الفردي، و المجتمعي، و الدولي تحت قاعدة الحلال و الحرام، و التي نتج عنها علم آيات الأحكام، ثم الفقه الإسلامي، ثم منهج ذلك الفقه المسمّى بأصول الفقه، و قد ترادف معها حشد من الأحاديث النبوية و الروايات عن أئمة أهل البيت المعصومين سلام الله عليهم أجمعين الشارحة و المبيّنة لتلك الآيات التي اندرجت تحت عنوان أحاديث الأحكام، و تهيكل العلم بالقواعد الاجتهادية، و مورست هذه العلوم في اللحظات الأولى للنزول القرآني)[١٠].

فما يختص بالقضايا التشريعية قد تناولته الكتب المختصة بآيات الأحكام[١١]، و استفيد منه في علمي الأصول و الفقه الإسلامي تنظيراً و تطبيقاً.

و المراد بآيات الأحكام: ما ورد في القرآن الكريم من الآيات القرآنية التي تتضمن الأوامر والنواهي وغير ذلك من الآيات، و التي تتضمن حكماً شرعيًّا بنصها، أو بدلالتها، أو بسياقها.

و لقد تعارف عند العلماء إطلاق أحكام القرآن؛ على أحكام القرآن العملية، الفرعية، المعروفة بالفقهية. فالمراد بآيات الأحكام -عند الإطلاق- هي: (الآيات التي تُبيّن الأحكام الفقهية وتدل عليها نصاً أو استنباطاً).

هذا هو المشهور والمعروف عند التصنيف والدراسة والإطلاق، ولكن

---

(١٠) محاضرات في تفسير آيات الأحكام، عبد الأمير كاظم زاهد، ص٢٤.

(١١) للمزيد: تراجع الكتب المختصة بعلم آيات الأحكام و ما يختص بها.

هناك من العلماء من جعل أحكام القرآن ـ المستخرجة من الآيات القرآنية ـ غير مختصة بالجانب الفقهي -فقط -بل أدخل مع الأحكام الفقهية الأحكام الاعتقادية والسلوكية والأخلاقية.

أن تاريخ الفقه و التشريع الإسلامي ينماز بميزة مهمة لا بد للباحث أن يلتفت اليها ألا و هي: (انّ تاريخه يرتبط بتاريخ التفسير و الحديث، فالفقه الإسلامي يستمد مادته من المصدرين الأساسيين: الكتاب و السّنة، و لذا لا يمكن الفصل بينهما. و في ضوء ذلك يلزم بمن يدوّن تاريخ الفقه الإسلامي، الإلمام بتاريخ نزول القرآن و أسبابه، و تصنيف آياته موضوعياً: طائفة تستهدف بيان المعارف العقلية، و أُخرى تستعرض قصص الأنبياء و سيرتهم و جهادهم المشركين، و ثالثة تبيّن الأحكام الشرعية التي تدور عليها رحى الفقه.

ثم إن مصادر التشريع و المنابع التي يستنبط منها الفقه ليست أمراً متفقاً عليه بين كلا الفريقين، فهناك منابع و مصادر اتّفقت عليها الكلمة، و هناك منابع تختص بطائفة دون أُخرى، فالسنّة تعتمد مثلاً القياس و الاستحسان في عملية الاستنباط في حين تنكرهما الشيعة الإمامية، فصار هذا باعثاً للباحثين في تاريخ التشريع الإسلامي إلى تخصيص فصول في هذا المجال بغية بيان مصادر التشريع الأصلية و التبعية..)[١٢].

لا بد من فهم حقيقة النظام التشريعي الذي جاء لتقنين حياة الإنسان و مسيرته، و جاء لتنظيم علاقاته مع خالقه، و مع الآخرين، و مع كل ما حوله، و هذا التقنين و التشريع في بعض الأحيان ـ أن لم يكن الأكثر ـ يعتبره الإنسان تقييداً له و حداً لحريته، إلا أنه لو فهم أنه يضمن له حقوقه و إنسانيته و يكسبه مزيداً من الاحترام و الاستقلالية التي قننت ضمن قواعد و قوانين هدفها خدمته و ضمان كرامته.

(... فتشريع النظام و تنظيم الشريعة ضروري في حياة الإنسان، و لحياة

---

(١٢) تاريخ الفقه الإسلامي و أدواره، جعفر السبحاني، ص١١ -١٢.

الإنسان الذي يريد أن يحيا حياة إنسانية بمعناها الحسن الجميل. ثم -يا ترى -أترى الإنسان -و الحال فيه هو ذلك الحال -يرضخ لتلك الشريعة الموقفة له عند حدود، و يخضع لذلك النظام المحدّد لتلك الحرية المطلقة فيه المؤيدة بالعواطف و الأهواء؟. الجواب: لا. اللهم إلا أن يفهم فيفهم حاجته الماسة إلى ذلك النظام، و أن مشروع ذلك النظام ممن له أهلية ذلك التشريع فهو مشرع بحق و منظم باستحقاق، ثم هي الأخرى أن يفهم فيفهم أن ذلك النظام و ذلك التشريع نظام بعدل و اعتدال يرمي إلى العدل و الاعتدال لا سرف فيه و لا تطفيف. إذن فاتّساق التشريع أو النظام و استوساقه بحاجة إلى أن يركز على دعائم ثلاث:

احدها: قناعة المكلف قناعة نفسية بحاجة إلى تنظيم شرع و تشريع نظام و إلا دفعت به الحرية المطلقة إلى الهوة السحيقة و المهوى العميق.

ثانيها: الإيمان بأهلية المشروع لذلك التشريع، و الاعتقاد بأحقيته في وضع ذلك النظام و إلا لم يرضخ الرضوخ المطلوب، و لم يستجب لذلك النظام، و لم يتمسك بذلك التشريع.

ثالثها: اعتقاد المكلف بعدل النظام و اعتداله و أنه لا سرف فيه و لا تطفيف..)[13].

لا شك في أن القرآن الكريم هو المصدر الأول للشريعة الإسلامية المقدسة، و أن ما بين الدفتين و المتداول-إلى حال الحاضر-بين المسلمين منذ عهد النبي ﷺ لم يزد فيه و لم ينقص منه.

فمن خصائص هذا الكتاب الإلهي:

١. أنه نزل باللغة العربية.

قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[سورة يوسف: ٢].

و قال تعالى: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾[سورة الزمر: ٢٨].

٢. فيه أخبار ما سبق و ما سيأتي.

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: ((كتاب الله فيه خبر ما قبلكم، و نبأ ما بعدكم، و هو الفصل

(١٣) القرآن و العقيدة أو آيات العقائد، مسلم حمود الحسيني الحلي، ص ٢٦٧ - ٢٦٨.

ليس بالهزل...))[١٤].

قال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [سورة يوسف: ٣].

و قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ ﴾ [سورة غافر: ٧٨].

٣. اشتمل القرآن الكريم على آيات تضمنت القواعد العامة في التشريع و بعض الأحكام الشرعية.

قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[سورة النحل: ٨٩].

و قال تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾[سورة الأنعام: ٣٨].

و هذا لا يعني أنه يحيط بكل جزئيات الوقائع و الحوادث و تفصيلاتها، بل هو تبيان من حيث احاطته بأصول و قواعد و كليات عامة، و التي تعتبر الأساس في كل قانون أو نظام.

قال الأمام الصادق(عليه السلام): ((إن الله تبارك و تعالى أنزل في القرآن تبيان كل شيء حتى -و الله -ما ترك شيئاً يحتاج إليه العباد، حتى لا يستطيع عبد يقول: لو كان هذا أُنزل في القرآن، إلاّ و قد أنزل الله فيه))[١٥].

قال الشيخ الطبرسي(رحمه الله)[١٦] في تفسير قوله تعالى ﴿ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ (أي بياناً لكل أمر مشكل و معناه ليبين كل شيء يحتاج إليه من أمور الشرع فإنه ما من شيء يحتاج الخلق إليه في أمر من أمور دينهم إلا و هو مبين في الكتاب أما بالتنصيص عليه أو بالإحالة على ما يوجب العلم من بيان النبي(صلى الله عليه وآله) و الحجج القائمين مقامه أو إجماع الأمة فيكون حكم الجميع في الحاصل مستفاداً من القرآن)[١٧].

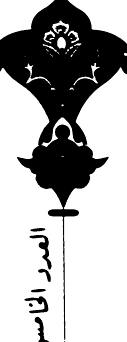
٣. القواعد العَقَدية:

(١٤) مصنف ابن ابي شيبة في الأحاديث و الآثار، ابن ابي شيبة، ج٧، ص ١٦٤.

(١٥) الكافي، الكليني، ج١، ٥٩، ح١.

(١٦) الشيخ الطبرسي، ابو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، من أكابر علماء الإمامية في القرن السادس الهجري.

(١٧) مجمع البيان في تفسير القرآن، الشيخ الطبرسي، ج٦، ص ٥٨٦.



إن المقصود بالكليات العقائدية أو الاعتقادية: المرتكزات الأولية للدين، اذ هي أولية في الفطرة وفي العقل والنقل.

و المقصود بالكليات العقائدية: هي التي تتعلق بذات الله تعالى المقدسة، و صفاته، و افعاله، و الإيمان به، و برسله، و ملائكته، و التي يجمعها علم (أصول الدين) و الذي تشكله -قرآنياً -آيات العقيدة التي نشأ عنها علم العقيدة، أو علم الكلام.

ف(قضية العقيدة -كما جاء بها القرآن-قضية اقتناع بعد السياق و الإدراك، و ليس قضية إكراه و غصب و إجبار، و لقد جاء القرآن يخاطب الإدراك البشري بكل قواه و طاقاته... في غير قهر حتى بالخارقة المادية التي قد تلجئ مشاهدها إلجاءً إلى الإذعان، و لكن وعيه لا يتدبرها و إدراكه لا يتعقلها لأنها فوق الوعي و الإدراك... إن حرية الاعتقاد تعدُّ أول حقوق «الإنسان» التي يثبت له بها وصف «إنسان» فالذي يسلب إنساناً حرية الاعتقاد، إنما يسلبه إنسانيته ابتداء... و مع حرية الاعتقاد حرية الدعوة للعقيدة، و الأمن من الأذى و الفتنة... و إلا فهي حرية بالاسم لا مدلول لها في واقع الحياة)[١٨].

و هناك جملة من الآيات القرآنية التي اوردت جملة من القضايا العقائدية المهمة في حياة الإنسان، و من جملة هذه الآيات المباركة:

١. **في مسألة التوحيد:**

قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [سورة الإخلاص: ١-٤].

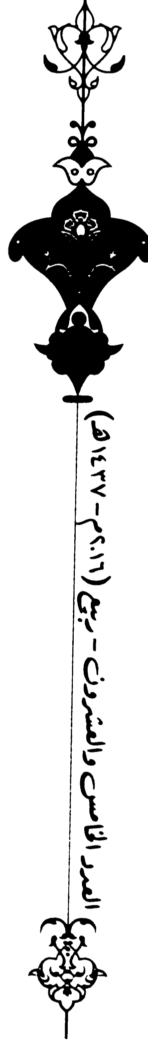
٢. **في مسألة أرسال الرسل:**

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [سورة الصف: ٩].

٣. في مسألة الجزاء و الآخرة و المعاد:

قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ

(١٨) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج١، ص٢٩١.



وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة القصص: ٨٣].

و قال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [سورة الزلزلة: ٦ -٨].

اما في أهم المباحث العقائدية ألا و هو دليل وجود الله تعالى نقول:

إن الله سبحانه و تعالى في محكم كتابة الكريم قال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [سورة فاطر: ١٥-١٦].

لا ريب أن فقر الشيء دليل قاطع على احتياجه إلى (غني قوي) يزيل حاجته، من هنا لا بد أن يكون لهذا الكون بأسره من أفاض عليه نعمة الوجود.

إن الظواهر الكونية من الذرة إلى المجرة، أي السماوات والأرض وما فيهما هي جمادات فقيرة في ذاتها، كانت لا شيء ثم وُجدت فهي مسبوقة بالعدم، فلكي توجد لا بد من موجدٍ لها لأنها لا يمكن أن توجد نفسها بنفسها، وهذا الموجد لها لا بد وأن يكون غنياً عنده القدرة على إيجادها ليخرجها من العدم إلى الوجود. و الإنسان يدخل ضمن هذه القاعدة، فإنه في ذاته فقير ليس غنياً أي لا يقدر أن يوجد نفسه بنفسه بل يحتاج إلى قوة أكبر منه توجده.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [سورة فاطر: ١٥].

لقد ركّز القرآن الكريم في مواضع متعددة على صفة (الغني) في الذات الإلهية المقدسة بحيث يمكن اعتبار ذلك إشارة ضمنية أو صريحة إلى هذا البرهان، أي برهان الفقر، ومن هذه الآيات المباركة قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾[سورة محمد: ٣٨].

٤. القواعد الأخلاقية:

و هي التي تتعلق ببيان الفضائل و المحاسن التي يجب أن يكون عليها الإنسان، و بيان الرذائل التي يجب عليه الاجتناب عنها.

و لا أظن أننا نحتاج إلى أي استثناء أو استدراك إذا قلنا: كل ما هو خلق، أو صفة خلقية، فهو كلي، فالأخلاق بطبيعتها قضايا كلية. فكل خلق يمثل نمطا في السلوك ومنهجا في الحياة، أي أن كل خلق هو قاعدة سلوكية كلية.

والأخلاق هي الخصال النفسية المعبر عنها بواسطة السلوك العملي المستمر. فلابد في الأخلاق من تحقق هذين الجانبين: الجانب النفسي والجانب العملي.

فالجانب النفسي يتضمن الرسوخ الباطني للخلق والاقتناع بقيمته وفائدته. والجانب العملي، هو الترجمة والثمرة الفعلية للإيمان بالخلق والرغبة فيه.

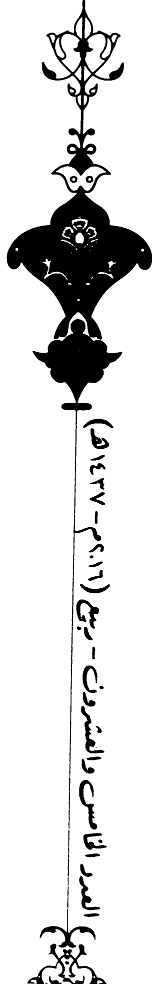
قال تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾[سورة طه: ١٣١].

و قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَـٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾[سورة النور: ٢٧-٣٠].

و قال تعالى: ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[سورة آل عمران: ١٣٤].

نعم، فلقد ذهب جملة من العلماء إلى التفريق بين لفظ (الخُلُق) بصيغة الإفراد، و لفظ (الأخلاق) بصيغة الجمع. فالخلق: طبيعة أولى ملازمة للنفس يفطر عليها الإنسان و يصدر عنها خلق كل فرد في أفعاله.

و المراد بالأخلاق: جملة قواعد السلوك المتعارف عليها في محيط إنساني معين و امتداد زماني محدود، و هذه القواعد تفترض أن يتكيف معها الجميع بقدر الوسع لضرورة انتظام أحوال



الاجتماع الإنساني و جريانها على نسق مقبول، و هذا النسق هو الأصل في القوانين و الأعراف و المواضعات الإنسانية.

لذا قيل: بأن النظام التربوي الأخلاقي القرآني يتأسس على خمسة عناصر هي: (الإلزام، و المسؤولية، و الجزاء، و النية، و الجهد، و تلكم هي العمد الرئيسة لكل نظرية أخلاقية واعية بمراميها)[١٩].

إن مُسمَّى (الأخلاق) يشمل حَسَنها وقبيحها معاً، فحَسنها أخلاق، و السيء منها أخلاق. إلا أن لفظ (الأخلاق) -أو الخُلقُ -إذا أُطلق بلا وصف ولا تقييد، فغالبا ما يراد به الأخلاق الحميدة ونظرًا للتلازم القائم بين كل خلق وما يخالفه، أو يضاده، فإن الحديث عن الأخلاق بمعناها الحميد الإيجابي، يكون متضمنا -تلقائيًا- للوجه الآخر المضاد أو المنافي. فكل حديث -مثلاً -عن حسن الخلق، فهو-صراحة أو ضمناً -حديث عن سوء الخلق. وكل حديث عن الأمانة، فهو ضمنيا حديث عن الخيانة. وكل ما يقال عن الصدق، يكون مستحضراً لضده ولما يمكن أن يقال في ضده، وهو الكذب. وكذلك لو عكسنا الأمر، فجرى الكلام ابتداءً عن سوء الخلق، أو عن الخيانة، أو عن الكذب، وهكذا.

ومعلوم أن لدى الإنسان القابليةَ للتخلق بالأخلاق الإيجابية الحميدة وبأضدادها معاً. غير أن الأخلاق الحميدة هي بدون شك أسبق وأكثر رسوخا وأصالة في النفوس البشرية من أضدادها.

٥. القواعد ذات الطابع العام:

و نريد بها القواعد التي ذكرت لتبيين الأمور الخاصة بالقدرة الإلهية و التي لا تدخل ضمن ما تقدم من القواعد إلا من باب الاستشهاد أو التأييد، و هي مقسمة بحسب تقسيمات و تصنيفات كثيرة منها:

أولاً: العلمية:

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا

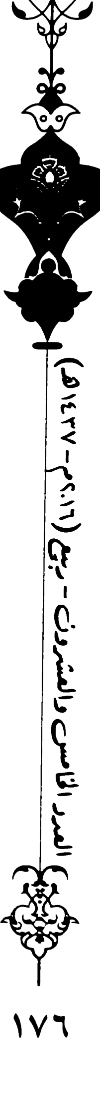
(١٩) دستور الأخلاق في القرآن، محمد عبد الله دراز، ص ٦٨٥.

ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[سورة النور: ٤٣-٤٥].

و قال تعالى: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[سورة يس: ٣٨-٤٠].

لقد كثر القول بين العلماء في وجوه الإعجاز في القرآن وتنوّع هذه الوجوه وتعددها، وأيا كان ذلك القول فالقرآن معجز بكل ما يتحمله هذا اللفظ من معنى، فهو معجز في ألفاظه وأسلوبه، ومعجز في بيانه ونظمه، ومعجز بعلومه ومعارفه، ومعجز في تشريعه وصيانته لحقوق الإنسان.

يقول السيوطي: (اختلف أهل العلم في وجه إعجاز القرآن.. فذكروا في ذلك وجوهاً كثيرة كلها حكمة وصواب وما بلغوا في وجوه إعجازه جزءاً واحداً من عشرة معشاره فقال قوم: هو الإيجاز مع البلاغة، وقال آخرون: هو البيان والفصاحة، وقال آخرون: هو الرصف والنظم، وقال آخرون: هو كونه خارجاً عن جنس كلام العرب من النظم والنثر والخطب والشعر مع كون حروفه في كلامهم ومعانيه في خطابهم وألفاظه من جنس كلماتهم، وهو بذاته قبيل غير قبيل كلامهم وجنس آخر عن أجناس خطابهم حتى إن من اقتصر على معانيه وغير حروفه أذهب رونقه، ومن اقتصر على حروفه وغير معانيه أبطل فائدته، فكان في ذلك أبلغ دلالة على إعجازه، وقال آخرون: هو كون قارئه لا يكل وسامعه لا يمل وإن تكررت عليه تلاوته، وقال آخرون: هو ما فيه من الإخبار عن الأمور الماضية، وقال آخرون: هو ما فيه من علم الغيب والحكم على الأمور بالقطع، وقال



آخرون: هو كونه جامعاً لعلوم يطول شرحها ويشق حصرها)[٢٠].

و يقول الزركشي[٢١] في كتابه (البرهان): (أهل التحقيق على أن الإعجاز وقع بجميع ما سبق من الأقوال لا بكل واحد على انفراده، فإنه جمع ذلك كله فلا معنى من نسبته إلى واحد منها بمفرده مع اشتماله على الجميع)[٢٢].

إن بحث الإعجاز العلمي في القرآن الكريم يعتبر من أهمّ الأبحاث في علوم القرآن، وهو من الأبحاث التي تعرّض لها العلماء قديماً، ولا يستغني عنها أي باحثٍ في علوم القرآن الكريم، وقد ذكر هذا البحث أيضاً في علم الكلام عند التعرّض للأنبياء عليهم السلام، وان بعض الأنبياء عليهم السلام كان لديهم بعض المعجزات بما يتناسب مع عصرهم، فاضطر علماء الكلام للدخول في بحث المعجزة من جهة اقتران هذا البحث بالنبوة وضرورتها وعلامتها، وأما في علوم القرآن فالتعرّض للإعجاز كان بما يتناسب مع القرآن الكريم وأنه معجزة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله، وأنه النبيّ الخاتم، و أن رسالته خاتمة الرسالات، فمن الطبيعي جدّاً أن يأخذ بحث الإعجاز القرآني مكانة خاصة في هذا العلم، بل في كل الموارد القرآنية.

و يراد بالإعجاز العلمي في القرآن الكريم: وجود آيات تشير إلى حقائق علمية تحرض على التطلع و البحث و التنقيب.

كما و قد يقصد به كما يقال: (إخبار القرآن الكريم أو السنة النبوية بحقيقة أثبتها العلم التجريبي، و ثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرسول صلى الله عليه وآله)[٢٣].

لا بد من الإشارة -هنا -إلى أنّ المعجزة لا تلغي قانون العلية ولا

(٢٠) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ج١، ص ١٠٨.
(٢١) أبو عبد الله بدر الدين محمد بن بهادر الزركشي المصري (ت ٧٩٤ هـ).
(٢٢) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ج٢، ص ١٠٦.
(٢٣) بحث: الإعجاز العلمي تأصيلًا و فهماً، عبد المجيد الزنداني، مجلة الإعجاز العلمي، عدد يوليو ١٩٩٥، ص ١٤٠.

تخرج عنه، وإنّما هي تستند إلى علّة غير العلل المعروفة والطبيعية عند البشر. ولو كانت إلغاءً لقانون العلية لاستحالت عقلاً، وعندئذ يسقط عنصر مهمّ من عناصر المعجزة. فولادة إنسان من غير أب لا يستحيل فرضا، لأن خالق الإنسان الذي أوجده وخلقه من طين ابتداءً إذ بإمكانه خلقه من غير أب بالأولوية، لكن المعتاد في الأسباب والقوانين الطبيعية أن يولد الإنسان من أبوين، فإذا ولد النبيّ عيسى عليه السلام من غير أب كان خرقاً لنواميس الطبيعة المتعارفة والمعتادة، لكن علة الخلق وأسبابه محفوظة. وهكذا بالنسبة لكلامه عليه السلام في المهد وإحيائه الموتى وأمثال ذلك.

إن حقيقة الإعجاز قائمة في كون المعجزة فوق قدرة البشر، وإعجاز القرآن الكريم من هذا القبيل، حيث إنه على مستوى البلاغة وغرابة النظم والأسلوب العجيب وما تضمّنه من معارف عالية واخباربالأمور الغيبية و التي تشكّل في مجموعها معجزة، بل يمكن القول بأن القرآن الكريم في كل واحدٍ من هذه الجوانب بلغ حدّ الإعجاز.

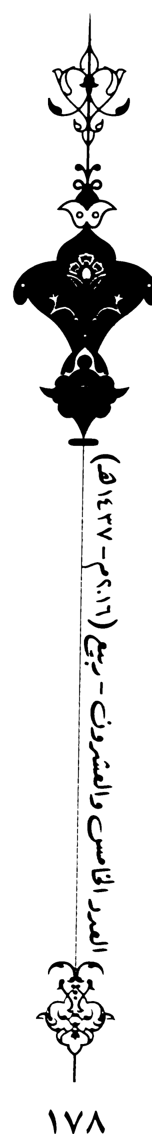
إن هناك جوانب إعجازية أخرى تتمثّل في الاختبارات الغيبية والكشف عن الجوانب الخفية من قصص الأنبياء عليهم السلام والأمم السالفة، والإشارات العلمية، والحديث عن أسرار الكون بما لم يكن معروفاً عند علماء الطبيعة والفلك آنذاك فضلاً عن عامة الناس من السواد الأعظم.

ثانياً: التاريخية:

قال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [سورة يوسف: ٣].

و قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴾[سورة طه: ٩٩].

لقد أحتوى القرآن على تفصيل تأريخي لسيرة حياة الأنبياء والمرسلين السابقين عليهم السلام وهو التأريخ الذي لم يكن يعرف العرب عنه شيئا سوى الأحبار



والرهبان، وكانوا على خلاف فيما بينهم، أما أمة العرب فقد كانوا أميين[٢٤] لايعلمون شيئا عنه، فلما جاءهم النبي محمد ﷺ بتأريخ الرسل والأنبياء مفصلاً، أعترف به بعض هؤلاء الرهبان والأحبار وصدقوه فيما روى عن ربه جل و علا. فخرجوا من دينهم و اتبعوا النبي محمد ﷺ ايماناً و تصديقاً و طاعة لله تعالى.

قال تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة هود: ٤٩].

إن هناك قسماً كبيراً من الآيات القرآنية أختص بنقل قصص و وقائع الأمم السالفة، فلا شك أن عرض هذه القصص لم يكن للسرد فقط، بل لأجل اغراض اسمى و أكبر، فقد جاءت هذه القصص -بشكل عام -لأخذ العبرة و للحصول على العلم و المعرفة و التجربة المفيدة من بين ثنايا هذه القصص لأجل الاستفادة منها في مسيرة الحياة الإنسانية.

قال تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾[سورة الروم: ٤٢].

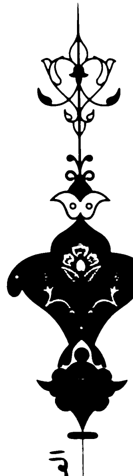
فهذا أمر للنبي ﷺ أن يأمرهم أن يسيروا في الأرض فينظروا إلى آثار الذين كانوا من قبل، حيث خربت ديارهم، و عفت آثارهم، و بادوا عن آخرهم، و انقطع دابرهم، بأنواع من النوائب و البلايا، كان أكثرهم مشركين، فأذاقهم الله بعض ما عملوا ليعتبر به المعتبرون فيرجعوا إلى التوحيد[٢٥].

و قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾[سورة غافر: ٢١].

الاستفهام في الآية إنكاري، و المقصود هو انه لماذا لا يسير هؤلاء

(٢٤) اختلف في معنى أمية العرب، و هل المراد بذلك: انهم أمة لا تملك كتاباً سماوياً، أو انها أمة لا تقرأ و لا تكتب، أو غير ذلك من التفسيرات، و التي أوردها المفسرون و غيرهم.

(٢٥) تفسير الميزان، الطباطبائي، ج١١، ص١٩٧.

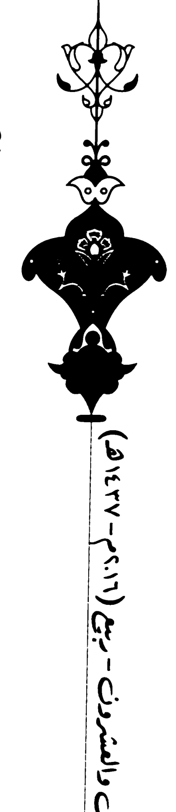


الناس الذين أرسلنا إليهم الرسول في الأرض فينظروا نظر التفكّر و الاعتبار، كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم، و كيف أخذهم الله بسبب تكذيبهم الأنبياء[٢٦].

نعم، إن هناك تخرصات مشككة بالقصص القرآني صاغها جملة من المشككين من أمثال (أمين الخولي) و محمد أحمد خلف الله.

فنجد أن أمين الخولي يقول: (و بهذا التفريق بين العرضين -الفني و التاريخي -للحادثة و الواقعة تبيّن في وضوح قريب أن عرض القرآن لأحداث الماضين، و وقائع حياتهم، و الحديث عن تلك الأحداث، و الأشخاص ليس إلا العرض الفني الأدبي.. لا العرض التاريخي التحقيقي)[٢٧].

يقول السيد محمد حسين الطباطبائي[٢٨] رحمه الله: (هذا خطأ فإن ما ذكر من أمر الفن القصصي، حق غير أن ذلك غير منطبق على حالة القرآن الكريم، فليس القرآن كتاب تاريخ و لا صحيفة من صحف القصص الخيالية، و إنما هو كتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه، و قد نص على أنه كلام الله سبحانه، و أنه لا يقول إلا الحق، و أن ليس بعد الحق إلا الضلال، و أنه لا يستعين للحق بباطل، و لا يستمد للهدى بضلال، و أنه كتاب يهدي إلى الحق، و إلى صراط مستقيم، و أن ما فيه حجة لمن أخذ به، و على من تركه في آيات جمة لا حاجة إلى إيرادها، فكيف يسع لباحث يبحث عن مقاصد القرآن أن يجوز اشتماله على رأي باطل، أو قصة كاذبة باطلة، أو خرافة، أو تخييل... إنه كتاب يدعي لنفسه أنه كلام إلهي موضوع لهداية الناس إلى حقيقة سعادتهم، يهدي بالحق و يهدي إلى الحق و من الواجب على من يفسر كتاباً هذا شأنه و يستنطقه في مقاصده و مطالبه،



---

(٢٦) تفسير الميزان، ج١٧، ص ٣٢٦ -٣٢٧.

(٢٧) القصص القرآني في منطوقه و مفهومه، عبد الخطيب عبد الكريم، ص٧٦-٢٨٠.

(٢٨) السيد محمد حسين الطباطبائي، صاحب تفسير الميزان (١٩٠٤ -١٩٨٢ م) عالم و مفسر و فيلسوف شيعي كبير.

أن يفترضه صادقاً في حديثه مقتصراً على ما هو الحق الصريح...)[٢٩].

إن هناك من يقول: (ان القرآن يحمل هدفاً مقدساً، فهو يذكر قصصاً لأجل الدرس و العبرة، و ليس لمجرد عرض التاريخ، و لذا لا فرق لديه بين أن تكون تلك الوقائع التي ذكرها قد حدثت فعلاً أو لا، كما في الكثير من كلمات الحكماء عندما يذكرون الكثير من الحكمة و العبرة على لسان بعض الحيوانات، كقصص كليلة و دمنة، و عليه فلا ضرورة للعناء في تحليل أن قصص القرآن هي تاريخية أو تمثيلية لأجل العبرة)[٣٠].

و عن هذه المدعيات يرد الشيخ مرتضى المطهري[٣١] رحمه الله بقوله: (إن مثل هذا الكلام كلام وضيع جداً، فمن المحال أن يقوم الأنبياء و الذين منطق نبوتهم هو الحقيقة، أن يقوموا ببيان الواقع و لو بنحو التمثيل. ففي اللغات الأدبية في هذا العالم تجد كثيراً مثل ذلك، سواء على لسان الحيوانات أو بالاعتماد على التمثيل. و أما القرآن، و النبي، و الأئمة و من تربّى على هذا الدين، فمن المستحيل أن يتوسل بأمر غير مقدس لأجل الوصول إلى هذا الهدف المقدس، بأن يستخدم أمراً باطلاً لا حقيقة له، و لو بنحو التمثيل. و ينقل هو هذا الأصل-أي عدم إمكان استخدام وسيلة غير مقدسة لأجل الوصول إلى هدف مقدس -عن العلامة الطباطبائي في الميزان، و يصل إلى أننا لا شك لدينا في أن كافة القصص القرآني، كما ورد ذكره في القرآن، هو عين الواقع. و بعد أن يذكر القرآن قصة ما فلن نعود بحاجة إلى تأييد ذلك بأي تاريخ من تواريخ الدنيا)[٣٢].

(٢٩) تفسير الميزان، الطباطبائي، ج٧، ص ١٦٥ -١٦٧.

(٣٠) تحليل لغة القرآن و اساليب فهمه، محمد باقر سعيدي روشن، ترجمة علي عباس الموسوي، ص ٣٧٦.

(٣١) الشيخ الشهيد مرتضى المطهري (١٩٢٠-١٩٧٩ م) عالم دين و فيلسوف اسلامي شيعي.

(٣٢) المصدر السابق، ص ٣٧٦ نقلًا عن كتاب: سيرى در سيرة نبوي، مرتضى مطهري، ص١٢٣ -١٢٤.

كما و يقول السيد الطباطبائي رحمه الله:

(فإن الآيات القرآنية و كذا ما نقل إلينا من بيانات الأنبياء الماضين ظاهرة في كونهم لم يريدوا بها المجاز و التمثيل، بحيث لا يشك فيه إلا مكابر متعسف و لا كلام لنا معه، و لو جاز حمل هذه البيانات إلى أمثال هذه التجوزات جاز تأويل جميع ما أخبروا به من الحقائق الإلهية من غير استثناء إلى المادية المحضة النافية لكل ما وراء المادة)[٣٣].

ثالثاً: الاقتصادية:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ [سورة الإسراء: ٢٧].

و قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [سورة الأنعام: ١٤١].

إن للقرآن الكريم نظرة اقتصادية خاصة، نابعة من حقيقة الحكمة الإلهية و التي وضحتها آيات القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [سورة إبراهيم: ٣٢-٣٤].

يقول السيد محمد باقر الصدر[٣٤] رحمه الله: ((فهذه الفقرات الكريمة تقرر بوضوح: أن الله تعالى قد حشد للإنسان في هذا الكون الفسيح كل مصالحه و منافعه، و وفر له الموارد الكافية لإمداده بحياته و حاجاته المادية، و لكن الإنسان هو الذي ضيع على نفسه هذه الفرصة التي منحها الله

(٣٣) الميزان، ج٢، ص ٣١٤.

(٣٤) آية الله العظمى السيد محمد باقر الصدر (١٩٣٥ -١٩٨٠ م) مرجع و مفكر شيعي كبير، أعدم على يد النظام الصدامي العفلقي المقبور.

له بظلمه و كفرانه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ فظلم الإنسان في حياته العملية و كفرانه بالنعمة الإلهية هما السببان الأساسيان للمشكلة الاقتصادية في حياة الإنسان. و يتجسد ظلم الإنسان على الصعيد الاقتصادي: في سوء التوزيع. و يتجسد كفرانه للنعمة: في إهماله لاستثمار الطبيعة و موقفه السلبي منها))[٣٥].

و هذه حقيقة قرآنية؛ فالفساد و الإفساد هو من الإنسان.

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [سورة الروم: ٤١].

لقد بيَّن القرآن الكريم كيفية استهلاك الثروات وفق نظام اقتصادي إنساني متكامل يخدم الجميع و يراعي التنوع، و نذكر منه على سبيل المثال بعض الأسس المهمة في كيفية الاستهلاك الصحيح.

١. عدم الإسراف، و عدم التبذير:

قال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾[سورة الأعراف: ٣١].

٢. هناك محرمات يجب الاجتناب عنها، كما و أن هناك أشياء محللة كثيرة، الهدف من وراء كل ذلك قياس مقدار الطاعة.

قال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [سورة الأعراف: ١٥٧].

٣. وسط كل ذلك لابد على الإنسان أن لا يطغى، و إلا فإن ذلك مدعاة لزوال النعمة، و نزول العذاب.

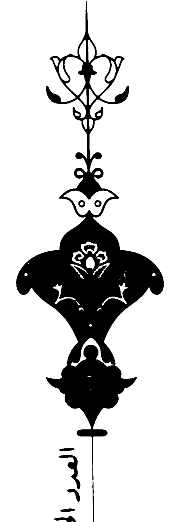
قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾[سورة طه: ٨١].

٤. بالشكر من قبل الإنسان تدوم النعم و تزداد بركاتها.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾[سورة إبراهيم: ٧].

و الشكر هو: عرفان النعم من المنعم، و حمده عليها.

عن أبي عبد الله عن آبائه عليهم السلام قال:



---

(٣٥) اقتصادنا، محمد باقر الصدر، ص ٣٨٠-٣٨١.

قال رسول الله ﷺ: ((ما فتح الله لعبدٍ باب شكرٍ فخزن عنه باب الزيادة))[٣٦].

رابعاً: الاجتماعية:

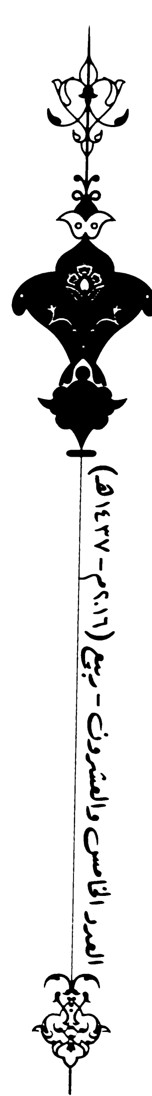
قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [سورة الحجرات: ١٣].

إن الذي يميز السنن والقوانين الاجتماعية القرآنية -التي تفسر النشاط الإنساني عموماً- أنها تقود متبعها إلى الحق واليقين لتمثل -بواقعها الحقيقي- علماً قاطعاً لا تشوبه الأهواء ولا تعتريه الظنون، فيصدق عندئذ التنبؤ من خلال الإيمان بهذه القوانينبأن المجتمعات سوف تسعد في حياتها الدنيا عند التزامهابها و تشقى بمخالفتها، إذ أن السنن القرآنية في طبيعة الكون والأصول الإنسانية الاجتماعية ثابتة ليس لها تغيير ولا تبديل ولا تحويل، بخلاف النظريات والقوانين الاجتماعية الوضعية ذات الأصول المتحيزة التي لم تسلم من الأهواء والظنون و الوقوع في الأخطاء أو في الشطط و الأفراط، وهذا الجانب الذي يثبت فاعلية القوانين والسنن القرآنية، كما و ان تميزها يشكّل جانباً من جوانب الإعجاز العميقة التي تتجلى في صدق المعاني والقوانين القرآنية عند انطباقها على الواقع الإنساني والاجتماعي بصورة عامة.

ولا شك في أن استخلاص السنن والقوانين الاجتماعية القرآنية ليس بالأمر اليسير الذي يستطيع أن يقول فيه كل من شاء ما شاء، بل لا بد من مختصين يحللون عوامل الربط والتسبيب والاطراد والانتظام في الظواهر الاجتماعية فضلا عن المعرفة بقوانين الاستنباط من الواقع من جهة ومن القرآن من جهة أخرى، وذلك يقتضي المعرفة الدقيقة بالمفاهيم الاجتماعية القرآنية الكلية وما يندرج تحتها من مفاهيم جزئية أو أقل كلية وما ينشأ من تفاعلات بين هذه المفاهيم التي تترتب بصورة منهجية فتشكل النظريات المفسرة للفعل الاجتماعي.

إن مفهوم الضبط الاجتماعي

(٣٦) الكافي، الكليني، ج٢، ص٩٤.



وطبيعته وماهيته في القرآن الكريم يرتبط بالقيم والمقاصد الكبرى، ولهذا فإن النظم الاجتماعية والعلاقات الإنسانية والقواعد القانونية تقوم على المصالح الكلية التي يحددها القرآن الكريم، ولهذا فإن الضبط الاجتماعي بقواعده ووسائله المختلفة في القرآن يحكم المجتمع ولا يحتكم إليه، وهذا النموذج يقدم إطاراً شاملاً ويحدد معالم منهج متميز للضبط الاجتماعي يظهر تميز الأحكام القرآنية ويبرز إعجازها في هذه التشريعات.

قراءة في النماذج القرآنية:

إن النماذج القرآنية من المباحث المهمة في بحث (القواعد) و (الكليات القرآنية)، إذ لا يمكن أن نورد قاعدة ما ذات صبغة كلية من دون أن يمون لها نموذج و لو واحد، فالقواعد و الكليات قائمة على النماذج التطبيقية، و يمكن حصر النماذج القرآنية في موردين عامين هما:-

١. نموذج إيحائي[٣٧]: و المراد به استعمال كلمة أو وصف أو فعل معين لإعطاء معلومة معينة بشكل غير مباشر، و ذلك عن طريق المثال، و القصة الهادفة، و ما شاكل ذلك.

قال تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[سورة الزمر: ١٠].

و قال تعالى: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [سورة الحشر: ٩].

و قال تعالى: ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [سورة العنكبوت: ٥٤].

فـ(الصابرون) و (المفلحون)

---

(٣٧) إيحاء: اسم، الجمع إيحاءات، مصدر أوحى، و هو في اللغة: الإشارة و الكلام الخفي، و كل ما ألقيته إلى غيرك. و الإيحاء: يدل على ما يحدث في الذهن من فكر أو تصور بتأثير عامل خارجي. و لكلمة إيحاء مفهومان مختلفان: الأول: ان الفكرة الموحى بها تتولد في الذهن بتأثير عامل خارجي (كلمة، إشارة، حركة) لا بتأثير عامل داخلي. و الثاني: ان هذه الفكرة الخارجية تطعم ذهن الموحى إليه فتحركه و تثير فيه فاعلية نفسية جديدة.

أوصاف عامة تعطي إيحاءات للاقتداء بها ممن يريد الدخول تحت قاعدة (الصابر) و (المفلح) لأن جزاءهم هو خير جزاء.

أما (الكافرون) فهو نموذج إيحائي لأجل الاجتناب عن هذا النموذج الذي سيكون جزاءه أسوء جزاء.

٢. نموذج حقيقي: و ذلك بالإشارة إلى شخص موجود أو كان موجوداً، أو بالكلام عن نموذجها على السامعين أن يعتبروا به، و النموذج الحقيقي هذا ينقسم على قسمين هما:

أولاً: النموذج الحقيقي الصالح: هو النموذج القدوة في العمل، النموذج الأسمى في القول و الفعل و الجد و المثابرة و القرب من الله تعالى، هو نموذج إنساني بكل معنى الكلمة.

قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [سورة الأحزاب: ٢١].

و قال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [سورة النحل: ١٢٠].

و قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾ [سورة مريم: ٥٤].

و قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ [سورة لقمان: ١٢].

و قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ [سورة ص: ٤٨-٤٩].

ثانياً: النموذج الحقيقي الغير صالح: و هو النموذج المضروب للتحذير، و لأخذ العبرة في الاجتناب عنه و عن ما يفعله، و عن كل ما يؤدي إلى الارتسام برسمه.

قال تعالى: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ [سورة البقرة: ٢٦٨].

و قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ

نِسَآءَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [سورة القصص: ٤].

و قال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [سورة الأعراف: ١٧٥ -١٧٦].

و قال تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢاۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [سورة الجمعة: ٥].

(إن القرآن يعرض أنماطاً من نماذج النفوس البشرية على نطاق واسع. يشمل كل أنماط النفوس البشرية في أصالتها الفطرية. و في حالاتها كذلك. في هداها و في ضلالها. في رشدها و في غيها. في استقامتها و في إعراضها. في ارتفاعها و في هبوطها. في قوتها و في ضعفها. في سرها و في علانيتها. في فرديتها و في جماعيتها. في شتى صورها و أشكالها، و أوضاعها و أحوالها.. يعرض ذلك كله في حيز من التعبير يستحيل -لو لم يكن من عند الله -أن يسع هذا الحشد الكبير من الأنماط و النماذج، و الأحوال و الأطوار، و أن يصوره في دقة و عمق لا يبلغها الاسلوب البشري و لا في أضعاف هذا الحيز من التعبير!. و يعرض الحقائق من خلال النماذج الفردية، كما أنه يعرض السنة الثابتة من خلال الحدث العارض... فأما المنهج القرآني فيعرض النفس الإنسانية كما هي في حقيقتها على النطاق الواسع الشامل، لأن العمود الأساسي في العرض هو حقيقة الإنسانية في شتى حالاتها، لا مذهب معين في النظر إليها...)[٣٨].

ميزات النموذج القرآني

إن النموذج القرآني يعتبر النموذج الأسمى كونه قد جاء عن (حكمة

(٣٨) مقومات التصور الإسلامي، سيد قطب، ص ٣٦٧.

بالغة) من لدن أحكم الحاكمين، و لهذا النموذج ميزاته الخاصة به و التي يمكن ان نجمل منها بعض الميزات التي نعتقد بأنها الابرز و التي هي:

١. **الواقعية**: فالنموذج القرآني واقعي، و يتميز بصدقه الوجودي عند ايراده، فهو نموذج موجود-حقيقة-أما سابقاً أو حال نزول النص، فليس هناك أي نموذج قرآني غير واقعي أبداً، حتى و لو كان فرداً واحداً فقط.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[سورة آل عمران: ٥٩].

٢. **حكمويته**: فإن للنموذج القرآني حكمة بالغة في ضربه فهو يتأطر بإطار (المثل) و (العبرة) و (الحجة).

قال تعالى: ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة إبراهيم: ٢٥].

و قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [سورة النور: ٤٤].

و قال تعالى: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [سورة الأنعام: ١٤٩].

٣. **رمزيته**: إن النموذج القرآني يشكل رمزية كبرى في ضربه، و عند التعرض له، سواء أكان نموذجاً صالحاً، أم غير صالح.

قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٣].

و قال تعالى: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾[سورة الأسراء: ٢٠].

٤. **التقديس الذاتي**: فالتقديس الذاتي للنموذج القرآني (الصالح) لا ينفك عنه سواء أكانت قدسيته (تشريعية) أو (احترامية).

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [سورة المائدة: ٣٣].

و قال تعالى: ﴿ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [سورة الأعراف: ٧٣].

المصادر و المراجع

١. الكافي، الشيخ أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي البغدادي ثقة الإسلام (ت ٣٢٩هـ).
٢. الميزان في تفسير القران، السيد محمد حسين الطباطبائي قدس سره (ت١٤٠٥هـ).
٣. محاضرات في تفسير آيات الأحكام، الدكتور عبد الأمير كاظم زاهد، العارف للمطبوعات، بيروت- لبنان، ط١، ٢٠٠٩ م.
٤. مقومات التصور الإسلامي، سيد قطب، دار الشروق، مصر- القاهرة.
٥. المدرسة القرآنية، السيد الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره، مركز الأبحاث و الدراسات التخصصية للشهيد الصدر قدس سره، ط٢، ١٤٢٤هـ، قم- ايران.
٦. دستور الأخلاق في القرآن، محمد عبد الله دراز، تحقيق و تعريب: عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، بيروت -لبنان.
٧. القصص القرآني في منطوقه و مفهومه، عبد الخطيب عبد الكريم، مطبعة السنة المحمدية، مصر- القاهرة، ١٩٦٤ م.
٨. تحليل لغة القرآن و اساليب فهمه، محمد باقر سعيدي روشن، ترجمة: علي عباس الموسوي، دار الولاء، بيروت -لبنان، ٢٠١٤ م.
٩. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ)، تحقيق: محمد ابو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤ م.
١٠. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي (ت ٧٩٤ هـ)، تحقيق: ابو الفضل الدمياطي، دار الحديث، مصر -القاهرة.
١١. مصنف ابن ابي شيبة في الأحاديث و الآثار، عبد الله ابن محمد بن ابي

شيبة (ت ٢٣٥ هـ)، ط١، لبنان، دار الفكر، ١٩٨٩ م.

١٢. تفسير التحرير و التنوير، محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٩٧٢ م)، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤ م.

١٣. مجمع البيان في تفسير القرآن، للشيخ أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي، من أكابر علماء الإمامية في القرن السادس الهجري، دار المعرفة للطباعة و النشر، بيروت- لبنان، ط١، ١٩٨٦ م.

